

صيد الخاطر

31 - - فصل : الشر و الخير .

تأملت الأرض و من عليها بعين فكري فرأيت خرابها أكثر من عمرانها .
ثم نظرت في المعمور منها فوجدت الكفار مستولين على أكثره و وجدت أهل الإسلام في الأرض قليلا بالإضافة إلى الكفار .

ثم تأملت المسلمين فرأيت المكاسب قد شغلت جمهورهم عن الرازق و أعرضت بهم عن العلم الدال عليه .

فالسultan مشغول بالأمر و النهي و اللذات العارضة له و مياه أغراضه جارية لا شكر لها .
و لا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدحة التي تقوي عنده هوى النفس .
و إنما ينبغي أن تقاوم الأمراض بأضدادها .

كما قال عمر بن المهاجر : قال لي عمر بن عبد العزيز : [إذا رأيتني قد حدث عن الحق فخذ بثيابي و هزني و قل : مالك يا عمر ؟] .

و قال عمر بن الخطاب هـ : [رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا] .

فأحوج الخلق إلى النصائح و المواعظ السلطان .

و أما جنوده فجمهورهم في سكر الهوى و زينة الدنيا و قد انضاف إلى ذلك الجهل و عدم العلم فلا يؤلمهم ذنب و لا ينزعجون من لبس حرير أو شرب خمر حتى ربما قال بعضهم : [إيش يعمل الجندي أيلبس القطن ؟] .

ثم أخذهم للأشياء من غير وجهها فالظلم معهم كالطبع .

و أرباب البوادي قد غمرهم الجهل و كذلك أهل القرى ما أكثر تقلبهم في الأنجاس و تهوينهم لأمر الصلوات و ربما صلت المرأة منهن قاعدة .

ثم نظرت في التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت و صار الربا في معاملتهم فاشيا فلا يبالي أحدهم من أي تحصل له الدنيا ؟ .

و هم في باب الزكاة مفرطون و لا يستوحشون من تركها إلا من عصم الله .

ثم نظرت في أرباب المعاش فوجدت الغش في معاملاتهم عاما و التطفيف و البخس و هم مع هذا مغمورون بالجهل .

و رأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الأشغال طلبا للكسب قبل أن يعرف ما يجب عليه و ما يتأدب به .

ثم نظرت في أحوال النساء فرأيتهن قليلات الدين عظيمات الجهل ما عندهم من الآخرة خبر إلا

من عصم ا .

فقلت : واعجبا فمن بقي لخدمة ا D و معرفته ؟ .

فنظرت فإذا العلماء و المتعلمون و العباد و المتزهدون فتأملت العباد و المتزهدين
فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم و يأنس إلى تعظيمه و تقبيل يده و كثرة أتباعه حتى إن
أحدهم لو اضطر إلى أن يشتري حاجة من السوق لم يفعل لئلا ينكسر جاهه .
ثم تترقى بهم رتبة الناموس إلى ألا يعودوا مريضا و لا يشهدوا جنازة إلا أن يكون عظيم
القدر عندهم و لا يتزاوون بل ربما ضن بعضهم على بعض بلقاء فقد صارت النواميس كالأوثان
يعبدونها و لا يعلمون .

و فيهم من يقدم على الفتوى و هو جاهل لئلا يخل بناموس التصدر ثم يعيبون العلماء لحرصهم
على الدنيا و لا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه إلا تناول المباحات .
ثم تأملت العلماء المتعلمين فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمانة النجابة لأن أمانة
النجابة طلب العلم للعمل به و جمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ به قضاء
مكان أو ليصير به قاضي بلد أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه لم يكتفي .
ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى و يستخدمه فهو يؤثر ما يصده العلم عنه
و يقبل على ما ينهاه و لا يكاد يجد ذوق معاملة ا سبحانه و إنما همته أن يحدث و حسب .
إلا أن ا لا يخلي الأرض من قائم له بالحجة جامع بين العلم و العمل غارف بحقوق ا تعالى
خائف منه فذلك قطب الدنيا و متى مات أخلف ا عوضه .

و ربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنياحة عنه في كل نائبة .

و مثل هذا لا تخلو الأرض منه فهو بمقام النبي في الأمة .

و هذا الذي أصفه يكون قائما بالأصول حافظا للحدود و ربما قل علمه أو قلت معاملته .

فأما الكاملون في جميع الأدوات فيندر وجودهم فيكون في الزمان البعيد منهم واحد .

و لقد سبرت السلف كلهم فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين و
بين العمل حتى صار قدوة للعابدين فلم أر أكثر من ثلاثة : أولهم الحسن البصري و ثانيهم
سفيان الثوري و ثالثهم أحمد بن حنبل .

و قد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتابا و ما أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب .

و إن كان في السلف سادات إلا أن أكثرهم غلب عليه فن فنقص من الآخر فمنهم من غلب عليه
العلم و منهم من غلب عليه العمل و كل هؤلاء كان هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم و
النصيب الأوفى من المعاملة و المعرفة .

و لا يأس من و جود من يحذو حذوهم و إن كان الفضل بالسبق لهم فقد أطلع ا D الخضر على
ما خفى من موسى عليهما السلام .

فخزائن ا مملوءة و عطاؤه لا يقتصر على شخص .

و قد حكى لي عن ابن عقيل أنه كان يقول عن نفسه : [أنا عملت في قارب ثم كسر] .
و هذا غلط فمن أين له ؟ فكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك و كم
من متأخر سبق متقدما و قد قيل : .

(إن الليالي و الأيام حاملة ... و ليس يعلم غير ا ما تلد)